أدب الطفل والتراث

أدب الطفل والتراث

أ.سارة طالب السهيل

إن الهدف الأساسى لأدب الأطفال الطفل هو تطوير طاقته الإبداعية والإنسانية بالفكر، والمهارات عقليًا، وعمليًا، ووجدانيًا.

الكتابة عن الطفل تختلف عن الكتابة للطفل، فعلى سبيل المثال كان كتاب إيميل لجان جاك روسو لتربية الطفل، وهو عن الطفل وليس للطفل فى أواخر عام ١٧٠٠.

وهو من أوائل الكتب التى اهتمت بالطفولة، كما أن كتاب العالم المصور أشهر الكتب المخصصة للأطفال بأوروبا، الذى وضعه كومينيوس المربى التشيكوسلوفاكى الإنسانى عام ١٦٥٧، وهو كتاب للطفل.

إن الطفل يحتاج إلى شخص أكبر خبرة للاستفادة منه، إلا إنه لابد أيضًا وأن يأخذ برأى الطفل فيما نقدمه له من نصوص أدبية خاصة بالطفل سواء قصة، أو قصيدة، أو حكاية، أو مسرحية، ونعرض العمل على الأطفال، ونسألهم على الأشياء الجمالية والفنية، خاصة الطفل المعاصر الذى أصبح منفتحًا على العالم، وعلى دراية تامة بما يجرى حوله من أحداث على كثير من الأصعدة، واطلاعهم على العالم بفضل الإنترنت، والفيس بوك، وتويتر، والفضائيات، ووسائل الإعلام المختلفة التى أصبحت منتشرة وبحوزة الجميع؛ إلا أن الأطفال ليس لهم دراية تامة بما يجرى وراء الحدث، ولا باستطاعتهم تقييم الأمور بشكل كامل، كما أنهم مسؤلون من أولياء أمورهم، وبسبب صغر سنهم لا يمكنهم إدراك كافة النواحى الثقافية؛ مما يجعل للكبار دورًا فعالاً فى توجيههم، واختيار الأفضل لهم، أو

الاختيار معهم، كما أن دور الرقيب على الطفل يجب أن لا ينتهى مهما انفتح الطفل على الفضاءات الواسعة.

علاقة الطفل بالأدب تبدأ منذ لحظة الميلاد، يقول رضا النحوى فى ذلك : يعتقد الكثيرون أن أدب الأطفال أدب حديث لم يعرف إلا منذ قرنين عندما انطلق من فرنسا، ثم امتد إلى غيرها، ولكننا نعتقد أنه أدب قديم فى حياة الإنسان قدم الأدب نفسه، وقدم الطفولة نفسها، أو لعله كان أول صورة من صور الأدب عرفها الإنسان فى تاريخه، فالأدب استجابة فطرية لعوامل متعددة فى الحياة : كالعامل الدينى، والاجتماعى، والأحداث المختلفة فى واقع الإنسان، وغير ذلك، وأسرع استجابة فطرية هى استجابة الأمومة، والأبوة لبراءة الطفولة، وضعفها، وحاجتها.

بعض الباحثين يرجع اقتران أدب الطفل بنشأة البشرية، مما يعنى أن الإنسانية تتناقل هذا الأدب عبر الأجيال كتراث نابض بالحياة، مما يؤكد حقيقة لا نعرفها، وهى أن التراث متوغل فى تركيبنا النفسى، والعقلى، بحيث لا نستطيع التفكير، والإبداع بمعزل عن حضوره فى مخيلتنا.

والتراث فى اللغة يعنى : ما يتركه الإنسان لمن يخلفه أو يأتى بعده، فالتراث هو كل ما وصل إلينا من الماضى داخل الحضارة السائدة، وله خاصية الفعل والتأثير فى حياتنا، والتراث فى أدب الطفل يعنى توظيف التراث، بما يعكس استحضار فترات محددة من التاريخ سواء من خلال مواقف، او حوادث، أو شخصيات، أو استلهام قصص وحكايات وفكاهات ونوادر. والأمثلة من التراث الشعبى، أو استغلال كتب تراثية عالمية، ككتابى: "كليلة دمنة"، و"ألف ليلة وليلة"، اللذين يشتملان على العديد من الحكم والمواعظ، وأجواء من السحر، والدهشة، والمرح والفكاهة. ويمكن تبسيط المادة التراثية على شكل : قصة، أو قصيدة، أو مسرحية، أو مقالة. مثل أن نعرف الأطفال بشخصية تاريخية مهمة، بأن نجعلها تتحدث عن نفسها، وعن مولدها، ونشأتها، وإنجازاتها، واستعراض نماذج من إبداعاتها، وأعمالها بأسلوب مبسط ومناسب؛ ولذلك نجد عناية الأدباء والعاملين فى مجال الطفولة، بترسيخ مفهوم التراث العربى، وتعزيزه فى نفوس الأطفال، باعتباره أحد أشكال الدفاع عن الهوية، والمحافظة على الجذور مما يعكس الخوف من الغزو الثقافى الغربى الذى يؤدى إلى تغريب الأطفال عن تراثهم؛ كان الهدف هو التواصل مع التراث لترسيخ ثقافة التواصل مع العالم العربى.

تقديم التراث برؤية عصرية تناسب الحاضر، لا يمكن أن تتحقق بدون توافر مجموعة من الشروط، فى مقدمتها : استخدام اللغة، والرموز الشائعة، والجماليات البصرية التى تجذب الطفل المعروف بسرعة البديهة، وهو الأمر الذى من شأنه بعث الحياة فى هذا التراث، وجعله متجددًا، وتحقيق لمعادلة شديدة الصعوبة، وهى مزج الأصالة بالمعاصرة.

ومن المبدع أن عالمنا العربى تتعدد فيه البيئات الجغرافية التى تتنوع فيه أيضًا خصائص التراث : فالمنطقة الساحلية لها تراثها المعبر عنها، وقيمها الخاصة من الانفتاح على الآخر بحكم طبيعة الشعوب الساحلية، والبيئة الزراعية لها فنونها التراثية الناطقة

بمخزونها الثقافى المعبر عن قيم الاستقرار الزراعى الذى يحقق بدوره التماسك الأسرى، فضلاً عن البيئة الصحراوية المنتشرة فى أرجاء الوطن العربى، وما يرتبط بها من قيم تراثية تعنى بقيم الكرم والفروسية وغيرها. ولعل توظيف التراث لصالح أدب الطفل يتطلب إعادة صياغته بما يناسب احتياجات الطفل وفقا لمعطيات عصره، وطبيعة الطفل، وهو ما يتطلب من الكاتب بذل جهد من أجل ذلك، على سبيل المثال : حكايات على بابا، أو زرقاء اليمامة، أو مصباح علاءالدين، وغيرها، سواء فى عمل إبداعى شعرى، أو مسرحى، أو درامى يحوى بداخله القيم التى نريد غرسها فى نفوس الصغار وفقا لمراحلهم المختلفة، فى الوقت الذى يراعى فيه توافر عنصر الحركة الممزوجة بالمشهد الملىء بالإثارة والجذب وفقا للغة العصر الشائعة داخل العمل الأدبى.

ولاشك أن تراثنا العربى يتمتع بثراء واسع جعل الآباء ينهلون من معينه الذى لا ينضب. ومن نماذج الاستلهام المبدعة للتراث : سلسلة عباقرة العرب، وهى عن خمس شخصيات عربية فذة فى مجالات اللغة، والأدب، والفكر، والفلسفة، والترجمة : الخليل بن أحمد، وأبوعثمان الجاحظ، وابن طفيل، وابن خلدون، وابن المقفع. وهناك سلسلة علماء العرب، فقد أصدر سليمان فياض خمسة كتب روى فيها قصص خمسة من العلماء العرب تحدث عن إنجازاتهم، واكتشافاتهم، وفضلهم على الحضارة العالمية، وهم : ابن النفيس مكتشف الدورة الدموية، وابن الهيثم عالم البصريات، والبيرونى عالم الجغرافيا الفلكية، وجابر بن حيان أبو الكيمياء، وابن البيطار عالم النبات. وبهذا الإبداع الأدبى حقق سليمان فياض النموذج الكامل لأدب الطفل العربى المنشود. فينمى بذلك شخصية الطفل وثقافته وقدراته ليصل الماضى بالحاضر، ويحبب إليه القراءة والمعرفة والجدية بمتعة وبساطة، وشحنًا لوجدانه بالقيم العربية، والمعلومات التاريخية والأدبية والعلمية.

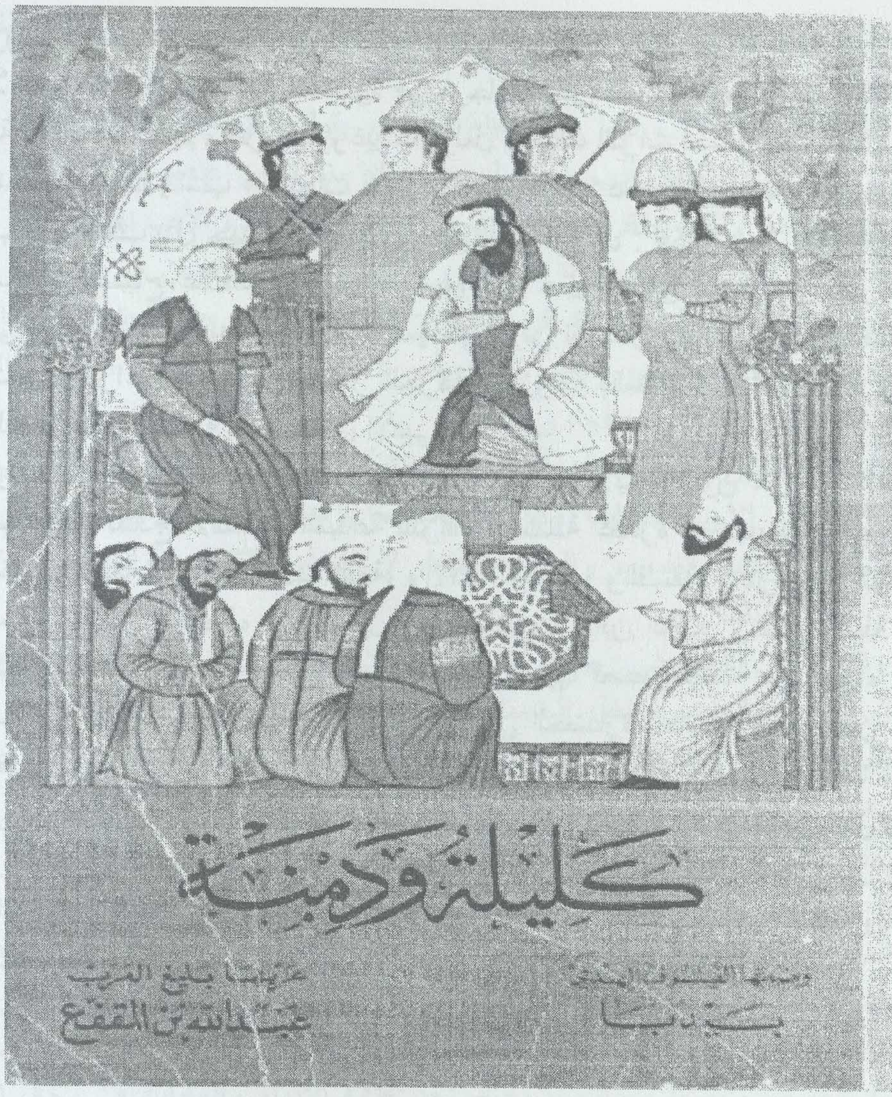

وقد اتجه ثلاثة من أدباء العرب : سليمان فياض، وأحمد سويلم من مصر، ورشيد الذاودى من تونس إلى التراث العربى الجيد الذى يربط الطفل العربى بتراثه الأصيل ليساعده على الثقة فى قدراته، وإمكاناته لخوض الصعاب والمشاق، وقد شكل الأدب الشعبى المنبع الأول لأدب الطفل العربى والغربى. برز فى ذلك الكاتب المصرى كامل كيلانى الذى قام باستلهام، وتبسيط حكايات ألف ليلة وليلة وتقديمها للأطفال، وكان أولها السندباد البحرى عام ١٩٢٧. ومازال كُتاب أدب الأطفال فى العالم العربى حتى اليوم يستنطقون التراث، ويستمدون الموضوعات، والأساليب السردية، وبذلك قامت بالتهذيب للأطفال مثل حكايات كليلة ودمنة، وألف ليلة وليلة، وحكايات جحا، وأشعب، وقراقوش.

لاشك أن هناك علاقة مشتركة بين أدب الطفل والتراث العربى بشقيه : الرسمى المتمثل فى ألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة، والقصص الدينى، والتراث الشعبى، وحيث إن الحكايات الشعبية رافقت الشعوب فى نشأتها الأولى نجد أن أدب الأطفال يرافق الإنسان

أيضًا فى أولى مراحل نموه، وهناك عوامل أخرى مشتركة بين الحكاية الشعبية وأدب الأطفال، من أهمها : أن الحكاية الشعبية تخاطب العقل الباطن لدى الإنسان، وهذا ما يسعى إليه أدب الأطفال إذ يحاول دائمًا أن ينفذ إلى عقل الطفل الباطن، ويخلص الطفل ويحرره من ضغوطاته الداخلية التى يصعب عليه التخلص منها بسبب مرحلته العمرية. كما أن الخوارق التى تعتبر من مكونات الحكاية الشعبية تجذب الأطفال لما يجدون فيها من تعبير عن طموحاتهم وأحلامهم. خاصة أنها تنفذ إلى أعماقهم، وعقلهم الباطن لتلعب دورًا فعالاً فى إثارة ما يخزنه فى هذا العقل.

وأعتقد أن الحكايات الشعبية وفنون التراث قادرة أن تحتل عقول الأطفال وقلوبهم رغم ما قد تحويه من خوارق ورعب، فعالم المستحيلات هو العالم المحبب لدى الأطفال، عندما تحول الساحرة الشريرة البطل إلى حيوان، أو طير؛ لأنها ببساطة شديدة لا تعرف زمانًا، ولا مكانًا، وتسبح فى فضاءات الخيال الإنسانى مدفوعة بعاطفة جياشة ضد كل ما هو مألوف وسائد؛ ولهذا كانت لقصص علاءالدين، والسندباد، وعلى بابا وقع خاص واستمرارهم فى قلوب الأطفال. وهذا لا يتعارض مع عصرنة هذه الحكايات الشعبية، والانتقال بها من مرحلة الأسطورة الوهمية إلى الخيال الممزوج بالفكر، والخيال العلمى أكثر مواكبة لعصر الصورة، فضلاً عن ما يحويه الأدب الشعبى من قيم للبطولة، والفروسية، وغيرها من القيم التى تستفز وجدان الصغير. كل ذلك قد أثرى أدب الطفل سواء تجسد ذلك فى تضمين القصص على لسان الحيوان، أو الأغانى الشعبية، والحكايات التى طوعها الأدب بلغة يسيرة وجاذبة ومشوقة فى آن واحد مثلما فعلت كتابات أحمد شوقى الأسطورية، وكتابات كامل كيلانى، ومحمد سعيد العريان، وغيرهم من الكتاب والأدباء.